الباب الأول

التعريف بالقومية العربية

١ — ماهى القومية ؟

لم تختلف الآراء حول مسألة قدرما اختلفت حول تعريف ماهية القومية ، وعلاقة القومية بكل من الأمة والدولة . وعلينا أن نستعرض آراء بعض المفكرين ، حتى نستطيع أن نكوّن لنا رأيا خاصا .

من أبرز المفكرين الغربيين الذين تحدثوا فى القومية والأمة والدولة : مكياڤيللى ، وهوبز ، وروسو ، وفختة ، وهكل . فيرى هوبز أن أساس قيام الدولة أمران : أولهما المصلحة الفردية ، وثانيهما الخوف من تضارب مصالح المجتمع الذى تتألف منه الدولة ، ويرى أن الدولة عليها أن تهتم بالتوفيق بين المصالح المتضاربة وتوفير الأمن للجميع ، وليتم ذلك لابدّ من أن تجعل السلطة كلها فى يد الحكومة .

أما روسو فقد رأى أن هذه الدولة التى يراها هوبز ينقصها الوحدة الخلقية ، ورأى روسو أن الطريق إلى هذه الوحدة الخلقية هو السعى وراء هدف مشترك على أن يؤدى هذا الهدف إلى خير جميع الأفراد . ويرى روسو أنه لتكوين مجتمع واحد لابدّ من توفر شرطين : أولها وجود مصلحة مشتركة بحيث تستحق أن تقدم على المنافع الشخصية ، وثانيهما أن القانون الذى يخضع له المجتمع يكون من وضعه .

وخلاصة آراء روسو أن العلاقات بين الفرد والجماعة أساسها شيئان :

المصلحة العامة والاشتراك فى تقرير الأمور . وهذا هو الذى سمّاه روسو (الوطنية) وهذه الوطنية تشمل الجماعة السياسية ، بحيث تكون إيمانا عميقا تتأثر به حياة المواطن فتصبح عواطفه ومسئوليته الخلقية ومصلحته الشخصية وحتى محبته لنفسه مرتبطة بها ومعتمدة عليها . ويختم روسو آراءه بقوله : (ومن المؤكد أن أعجب ما ظهر من الفضائل كان نتيجة للوطنية أى لحب الوطن) .

أما فختة فكان يرى أن الدولة يجب أن تتدخل فى شئون الأفراد وأن تهتم بالمصالح العامة قبل كل شىء وخاصة فى النواحى الاقتصادية . وكان يرى أن الدولة هى الخير الأمثل للأمة .

أما هكل فقد تأثر بأفكار روسو ، فنادى بأن الحرية الخلقية أساسها الخضوع لارادة المجتمع . ولكنه عارض روسو فى أنه اعتبر القوانين التى تخضع لها الأمة نتيجة لتاريخ المجتمع وتقاليده وعاداته ونظمه . وذهب هكل إلى أنه لاداعى لوجود هيئة تشريعية ذات سلطة عليا تضع القوانين على النحو الذى ارتآه روسو . والدولة عند هكل هى ما ينتج من الاختبارات التى تجتازها الأمة فى أدوار حياتها ، فإذا فقدت بعض أنظمة الدولة مقدرتها على مجاراة الأمة فى آمالها فقدت حقها فى البقاء .

وخلاصة آراء هكل ، من حيث علاقته بالقومية ، أننا عندما ندرس التاريخ فالذى يجب أن نتخذه وحده لبحثنا هو الأمة لا الأفراد أو المجموعات التى تتألف منها .

ومن أشهر النظريات التى تتناول القومية نظريتان : النظرية الفرنسية ،

والنظرية الألمانية . أما الألمان ، فقد كانوا منذ أوائل القرن التاسع عشر ينادون أن أساس القومية هو اللغة . فكل المتكلمين بالألمانية ، هم ألمان ، مهما كانت الدولة أو الدويلة التى ينتسبون إليها . أما الفرنسيون فكانت ظروفهم تختلف تماما عن ظروف الألمان ، فقد أتمت فرنسا وحدتها السياسية منذ قرون كثيرة ، وكانت قد استولت على بعض البلاد التى لايتكلم أهلها باللغة الفرنسية ، وكانت تطمع فى الاستيلاء على بعض مقاطعات الراين التى تتحدث بالألمانية ، ولذا فإن موافقتهم على النظرية الألمانية تتعارض مع مصالحهم ، ولذا نادوا بنظرية (الإرادة والمشيئة) ، فقالوا : إن القومية ليست باللغة ، بل إنما هى بالإرادة والمشيئة ، والأمة ليست مجموع الأفراد الذين يتكلمون لغة واحدة ، بل هى مجموع الأفراد الذين يحملون (مشيئة المعيشة المشتركة) . ومن أبرز الذين حملوا لواء هذه النظرية (أرنست رينان) ، ويبدو أن الشهيد عبد الوهاب الإنجليزى قد تأثر بهذه النظرية ، فقد كان يقول : كل من شاء أن يكون عربيا فهو عربى .

إن فكرة (القومية) قديمة ، عرفها البشر منذ أن عرفوا الحياة الاجتماعية وإن كانوا يطلقون عليها اسم (العصبية) . والحقيقة أن العصبية التى تجمع أفراد كل قبيلة ماهى إلا القومية . ونلاحظ أن أدب الجماعات القديمة التى كانت تعيش على شكل قبائل وعشائر هو أدب قومى عصبى قبلى . والأدب اليونانى القديم والأدب العربى الجاهلى من خير الأمثلة . فقد حفلت الإلياذة بذكر

العواطف القومية القبلية ، كما أن الأدب الجاهلي يكاد يقتصر على ذكر مفاخر القبيلة وأمجادها .

عرفت القبائل في نهاية المطاف نوعا من الاستقرار ، فتركت القبيلة حياة التنقل والترحال وسكنت بقعة من الأرض وارتبطت مصالحها بها ، و بدأ حبّ المدينة أو القرية أو مجموعة المدن التي أقامت فيها القبيلة . وهـذا ما يمكننا أن نسميه الوطنية أو الشعور بحب الوطن . وهكذا ارتبطت القومية بالمكان ، ولكنها اقتصرت على بقعة محدودة بادئ الأمر هي المدينة . فالمدينة اليونانية ، مثل اسبارطة ، لم تتجاوز منطقة سيادتها إلاّ بضع مئات من الأميال المربّعة ، وفي المشرق العربي القديم حلّت عصبية المدينة مكان عصبيّة القبيلة ، فتعصبت البصرة على الكوفة ، وتعصبت الكوفة على دمشق . وفي أوروبا في العصور الوسطى (١٢٠٠ ـ ١٥٠٠ م) كانت المدينة وحدة اقتصادية وسياسية مستقلة .

إن الوطنية هي حب الوطن ، والقومية هي حب الأمة . ولمّا كان الوطن هو قطعة من الأرض ، والأمة هي جماعة من البشر ، فإن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن ، والقومية هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة . وحب الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين الذين ينتمون إلى ذلك الوطن ، كما أن حب الأمة يتضمن في الوقت نفسه حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة .

لا تزال كلمة (أمة) غامضة في كثير من وجوه معناها ، فليس من اليسير

تحديدها ، وقد بذل اللغويون جهودا فى سبيل توضيح معنى هذا اللفظ ، فذكر معجم (لاروس) الفرنسى أن الأمة « مجموعة من الناس ، تسكن أرضا واحدة ، وترجع إلى أصل واحد ، أولها مصالح واحدة مشتركة منذ أمد بعيد ، وأخلاقهم متشابهة ، ويتحدثون فى الغالب لغة واحدة » . أما معجم القرن العشرين البريطانى فقال : « الأمة جسم شعب نشأ فى جذع واحد ، ويطلق اللفظ أيضا على الشعوب التى تسكن فى بقعة واحدة ، وتخضع لحكومة واحدة » .

اختلف المفكرون فى تحديد كلمة (الأمة) باختلاف ظروفهم وأحوالهم . فليس من الطبيعى أن يعتبر الأمريكى (العنصر) أصلا فى تكوين الأمة ، لأن أمته خليط من كل العناصر ، وليس من الطبيعى أن يجعل الإنجليزى (الوطن) فى المقام الأول من مفهوم الأمة ، لأن وطنه أوسع من حدود الجزر البريطانية .

تأثر (سيس) أحد زعماء الفكرة القومية فى فرنسا بمبادئ الثورة والحكم النيابى ، فقال : « إن الأمة تتألف من قوانين مشتركة » . وعرّف رينان الأمة بقوله : « لاتتكون الأمة بوحدة اللغة أو وحدة الأصل والعنصر ، بل يكون الأمة أحداث عظيمة حدثت فى الماضى ، وتطلع إلى المجد فى المستقبل » . ويعرف دركهيم الأمة بأنها : « جماعة من البشر تريد الحياة فى ظل قوانين معينة ، وأن تكوّن دولة سواء دولة كبيرة أم صغيرة » . أما شبنغلر فيقول : « ليست الأمم وحدات لغوية ولا سياسية ولا بيولوجية بل وحدات روحية » .

أما فى المعاجم العربية ، فنجد أن مفهوم كلمة (أمة) تقترب من تعريفات رينان وشبنغلر .

إن مدلول الأمة كما نفهمه اليوم لم يكن محددا عند أجدادنا العرب القدامى ففى معاجم اللغة العربية (الأمة) هى الجماعة من الناس ، والجيل ، والقرن ، وأهل الزمان الواحد ، وغير ذلك . وهذه التفاسير كلها لا تنطبق على مانعرفه عن الأمة فى الوقت الحاضر ، عدا التفسير الأول أى (الجماعة من الناس) ، ولكننا نضيف إليها أنها الجماعة من الناس التى لها لغة واحدة وأدب واحد ، وتقاليد واحدة ، ومصالح واحدة ، والتى لها مميزات خاصّة تميزها عن غيرها .

إذا أردنا أن نلمّ تماما بماهية مفهومى (الوطنية) و (القومية) وجب أن نلاحظ علاقة كل منهما بمفهوم ثالث هو مفهوم (الدولة) . والدولة هيئة سياسية يعرفها علماء القانون والاجتماع بقولهم : (جماعة من البشر ، يعيشون على أرض معيّنة مشتركة ، مؤلفين هيئة سياسية مستقلة ذات سيادة)

ان مفهوم (الدولة) هو الخط الواصل بين مفهومى (الوطن) و (الأمة) ولكن هذا الارتباط يختلف باختلاف أدوار التاريخ والظروف :

ا ـ فهناك أمة تؤلف دولة واحدة مستقلة ، مثل الأمة السويدية الآن ، فتنطبق الوطنية على القومية ، ويكون الوطن (مجموع الأراضى التى تعيش عليها الأمة وتدير سياستها الدولة) .

ب ـ وقد تؤلف الأمه دولا عديدة كل منها مستقلة تماما ، مثل الأمة

الألمانية قبل اتحادها سنة ١٨٧٠ ، ولذا فإن القومية تتجاوز حدود هذه الدولة وتسعى لإنشاء دولة واحدة ، ولذا لاتنطبق القومية على الوطنية .

حـ ـ وقد تكون الأمة محرومة من دولة خاصة بها وتابعة لدولة أجنبية عنها ، مثل الأمة البلغارية أثناء خضوعها للدولة العثمانية ، وهنا تفرض الدولة الحاكمة (وطنية عامة واسعة النطاق) ، ويقوم الصراع بين الوطنية التى تفرضها الدولة الحاكمة وبين القومية التى يشعر بها أفراد الأمة المحكومة .

د ـ وقد تكون الأمة محرومة من الاستقلال ، وتكون فى الوقت نفسه مجزأة وموزعة بين عدة دول أجنبية عنها ، مثل الأمة البولندية قبيل الحرب العالمية الأولى . وهنا نرى كل دولة حاكمة تحاول فرض وطنيتها ، بينما تسعى القومية إلى توحيد هذه الأجزاء أولا ثم تكوين دولة قومية جديدة ثانيا .

نستطيع أن نلخص الآراء كلها فنقول إن (القومية) هى مجموعة من الخصائص ، والمزايا ، والطباع ، والتقاليد ، والعادات ، والنظم الاجتماعية ، تنطبع بالجملة على مرّ الأجيال ، وبدرجات متفاوتة ، فى نفوس قوم تجمعهم وحدة لغوية وأدبية وتاريخية ، وروابط مشتركة من ذكريات وآمال ومصالح ومؤثرات إقليمية متممة بعضها للبعض الآخر ، من دون أن تقوم فيهم جميعا الوحدة العنصرية .

٢ — العرب والعالم العربى

أ — العالم العربى :

يمتد العالم العربى من الخليج العربى شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، ومن جبال طوروس فى جنوب تركيا شمالا ، إلى المحيط الهندى ومنابع النيل والصحراء الكبرى جنوبا . وينقسم العالم العربى جغرافيا إلى قسمين ، قسم فى غرب آسيا ، وقسم آخر فى شمال إفريقية . يضم القسم الأول جزيرة العرب (نجد ، والحجاز ، واليمن ، وعدن ، وحضرموت ، وعمان ومسقط وساحل الصلح وقطر والبحرين والكويت) والعراق والشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) . أما القسم الثانى فيشتمل على : مصر ، والسودان ، وليبيا (طرابلس وبرقة)، وتونس والجزائر ، ومراكش . وهناك بلاد بعض سكانها عرب أو يتكلمون باللغة العربية مثل زنجبار وبلاد الصومال وأواسط إفريقية وغيرها . وفى الأمريكيتين عدد كبير من المهاجرين العرب .

يقدّر تعداد العرب بنحو تسعة وسبعين مليونا ، ثلثهم تقريبا فى القسم الآسيوى ، وثلثاهم فى القسم الإفريقى . ويقدرون عدد الأجانب الذين يعيشون فى البلاد العربية بنحو أربعة ملايين نسمة (وخاصة فى فلسطين والجزائر) ، يقابلهم العدد نفسه من العرب ومن المتكلمين بالعربية الذين يعيشون خارج

البلاد العربية . وعلى هذا يكون مجموع العرب والمتكلمين بالعربية قرابة ثلاثة وثمانين مليون نسمة .

وأكثر الأقطار العربية سكانا الإقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة ، فيه ثلاثة وعشرون مليونا ، يليه مراكش فسكانها تسعة ملايين فى الجزء الذى كان خاضعا للحماية الفرنسية ، ومليون ومائتا ألف فى الجزء الذى كان خاضعا للحماية الأسبانية . ويبلغ سكان الجزائر كافة تسعة ملايين وثلث مليون (منهم مليون ومائتا ألف فرنسى) ، ويكاد السودانيون يبلغون تسعة ملايين ، والتونسيون أربعة ملايين ، والليبيون مليونا ونصف . والراجح أن سكان المملكة العربية السعودية (نجد والحجاز وعسير) قد أصبحوا سبعة ملايين ، وسكان اليمن أربعة ملايين ونصف مليون ، وسكان عدن وحضرموت نحو تسعمائة ألف ، وسكان عمان ومسقط نصف مليون تقريبا ، وسكان ساحل الصلح ثمانين ألفا ، وسكان قطر عشرين ألفا . وفى البحرين مائة ألف نسمة ، وفى الكويت مائتان وخمسون ألف نسمة . وسكان العراق نحو ستة ملايين ، وسكان الشام نحو سبعة ملايين عربى (منهم ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف فى الإقليم السورى من الجمهورية العربية المتحدة ، ونحو مليون وأربعمائة ألف فى لبنان ، ومثل هذا العدد فى الأردن ، وثلاثمائة ألف فى قطاع غزة ، ومائة وتسعون ألفا فى الجزء المحتل من فلسطين ، ومائتان وعشرون ألفا من اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين ومملكة الأردن) . ويقدر عدد

الصهيونيين فى الجزء المحتل من فلسطين بنحو مليون ونصف مليون نسمة .

إذا ألقينا نظرة على خريطة العالم العربى نجد أنها تحتوى على شتى أنواع التضاريس والمناخ والنبات والمعادن ، ويكاد أجزاء العالم العربى يتمم بعضه بعضا .

لم تعد العوامل الطبيعية ، وحدها ، تعيّن حدود الدول ، وتتحكم فى مصائر الشعوب ، بعد أن تقدمت وسائل المواصلات فى عصرنا الحديث فربطت الأقطار المتباعدة ، وتغلبت على الجبال والبحار والصحارى ، وأتاحت للدول الكبيرة أن تتوحّد رغم مابين أجزائها من اختلاف فى طبيعة الأرض والمناخ والموارد الاقتصادية ، وقضت على جميع الموانع الطبيعية . فالدول الحديثة إنما تقوم على إرادة شعوبها فى المعيشة المشتركة ، المستندة إلى المصالح المادية المتبادلة ، والعقليات المتقاربة ، والآمال والأهداف الواحدة ، وليس على أسس جغرافية محضة .

رغم أننا نعيش فى القرن العشرين ، ذلك القرن الذى شهد سيطرة الإنسان على العوامل الطبيعية والجغرافية إلّا أن أجزاء العالم العربى مازالت محرومة من وسائل المواصلات الحديثة التى تيسر لها الاتصال السريع، المريح ، الرخيص بأجزائه الأخرى . ولا شك أن صعوبة الاتصال تؤدّى إلى ظهور النزعات الإقليمية فى بعض الأقطار العربية النائية ، فيطبع كل قطر بطابع خاص فيصبح له عاداته وتقاليده ولهجته وقوانينه وظروفه الاجتماعية الخاصة

به ، وهذه الصعوبات أدت إلى منع امتزاج بعض الشعوب وانصهارها فى بوتقة واحدة ، وأدت أيضاً إلى ظهور أقليات قومية ودينية واجتماعية .

تتصل أقطار العالم العربى اتصالا مباشرا مستمرا دون أن تخل بانسجامها الأثنولوجى دولة غريبة سوى اسرائيل التى أصبحت مثل (العظمة فى الزور)، ومصيرها الزوال إن شاء الله ، حتى يتم الاتصال والانسجام بين جميع أجزاء العالم العربى .

ب — العرب :

كانت شبه جزيرة العرب هى مهد العرب ، بل مهد الساميين جميعا . ويرى كثير من المؤرخين الأوروبيين أن العرب والساميين شىء واحد . فقال Sprenger سبرنجر إن جميع الساميين عرب . فقد كان شبه الجزيرة العربية مأهولا بأقوام من جنس البحر الأبيض المتوسط الذى يتصف أبناؤه بالبشرة السمراء ، والرؤوس المستطيلة ، والشعور المجعدة السوداء ، والقامة المتوسطة ، وكان منهم المستقرون فى الأراضى الخصبة ، ومنهم البدو المتنقلون . ويطلق عليهم جميعا اسم (الساميّين) . وكان هؤلاء البدو إذا عجزت جزيرة العرب عن مدّهم بحاجاتهم الاقتصادية اندفعوا إلى بلاد الهلال الخصيب فى الشمال ، على شكل هجرات واسعة ، فيستقرون فيها ، ويمتزجون بسكانها الأصليين .

خرجت هذه الهجرات إلى الهلال الخصيب (الشام والعراق) لوفرة الماء

والكلأ والموارد الاقتصادية ،وقد بدأت هذه الهجرات فى وقت مبكر جدا ، فمنها ما يرجع عهده إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، مثل هجرة الأكديين إلى العراق ، حيث استقروا فى جنوبى العراق ، وامتزجوا بالسومريين ، مكونين الحضارة السومرية الأكدية ، ثم حلّ محلّهم العموريون الذين امتدوا إلى شمال سورية ، ثم الأشوريون الذين أسسوا فى شمال العراق امبراطورية امتدت إلى ضفاف النيل، ثم الفينيقيون الذين استقروا فى السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط (سنة ٢٦٠٠ ق . م) ، والعبرانيون الذين سكنوا فى فلسطين فترة طويلة .

من هذه الهجرات : هجرة أبناء إسماعيل من مكة إلى الشام فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهجرة قبائل قضاعة (ومنهم تنوخ) إلى الشام والعراق زمن الميلاد ، وهجرة إياد إلى سواد العراق فالموصل ، ونزوح قبائل ربيعة عن الحجاز إلى الجزيرة بين دجلة والفرات،وهجرة القحطانيين من اليمن إلى الشام على أثر انهيار سدّ العرم فى القرن الثالث للميلاد ، فنزلت لخم فى العراق ، وغسان فى الشام ، والأوس والخزرج فى يثرب . وأهم موجة عربية عرفها تاريخ الجزيرة العربية موجة العرب المسلمين فى القرن السابع للميلاد حينما خرجوا إلى الشام والعراق فاتحين لينشروا الإسلام ، وامتدت الفتوحات إلى الصين شرقا وإلى المحيط الأطلسى غربا . وما برحت الجزيرة العربية تقذف بقبائلها إلى الشمال من حين إلى آخر ، تارة على شكل موجات عنيفة مكتسحة ، وطورا على شكل هجرات بطيئة مسالمة ، وآخر ما عرفناه من هذه الهجرات

نزوح قبيلتى شمر وعنزة من نجد إلى الشام فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاد .

وهذا يوضّح لنا أن جيوش المسلمين العربية عند ما سارت لفتح الشام والعراق ومصر ، وجدوا معظم سكانها إما عربا وإما أقواما من أصول سامية أى عربية قديمة . ولهذا سهل بعد الفتح تفاهم الفاتحين والسكان الأصليين ، كما سهل اختلاطهم وتمازجهم واندماجهم فى قومية عربية واحدة .

أقبلت شعوب البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام ، يدفع بعضها الإعجاب بالدين الجديد ، ويدفع بعضها التخلص من الجزية المفروضة على غير المسلمين أو التقرب من الفاتحين ، وتدفع بعضها الرغبة فى الخلاص من الاختلافات الدينية المذهبية فى الكنيسة المسيحية ، وما تبع هذه الاختلافات من اضطهاد فرقة لأخرى .

وكما أقبلت هذه الشعوب المغلوبة على الإسلام ، فقد أقبلوا على اللغة العربية وتخلوا عن لغاتهم القديمة . وبدأت عملية تعريب واسعة النطاق ، وامتزجت دماء هذه الشعوب بالدماء العربية عن طريق التزاوج ، والتخلق بأخلاق العرب وسجاياهم ونظمهم الاجتماعية . ولكن عملية التعريب لم تسر جنبا إلى جنب مع حركة إدخال الناس فى الإسلام ، لأسباب أهمها أن استقرار العرب فى البلاد المفتوحة لم يكن بأعداد متساوية . فقد استقروا فى بعض الأقطار ، كالعراق والشام ، بأعداد كبيرة امتزجت بالسكان بالزواج ، فأثرت فى تكوين

السكان الجنسى ، إذ طبعتهم بطابع الجنس العربى . يضاف إلى هذا أن عرب شبه الجزيرة العربية كانوا على اتصال مستمر بهذه البلاد قبل ظهور الإسلام ، وأن أغلبية سكانها الأصليين هم من الساميين ، كما ظلت هذه البلاد مركزا للحكم العربى فترة بعيدة . واستقر العرب فى مصر وشمالى إفريقية بأعداد أقل ، ولذا كانت عملية التعريب أكثر بطأ وإن كانت قد أدت فى النهاية إلى نفس النتيجة .

لم تحدث عملية التعريب إذاً فجأة ، بل استغرقت زمنا طويلا ، فقد ظل أثر العنصر العربى ضعيفا فى برقة وطرابلس إلى القرن الحادى عشر ، حيث كان البربر يمثلون غالبية السكان . على أن هجرة قبائل بنى سليم و بنى هلال المضرية النجدية ، التى استقرت فى مصر فى أوائل الفتح العربى ، إلى برقة وطرابلس وتونس أدّت إلى التعجيل بتعريب أعداد ضخمة من البربر ، فعززت القومية العربية . وممّا قوى عملية التعريب فى شمال إفريقية ، وخاصة مراكش ، نزوح جماعات وافرة العدد من العرب من أسبانيا بعد سقوط الحكم العربى وسقوط الأندلس فى يد الأسبان .

أخذ العرب يتسربون إلى السودان بعد فتح مصر مباشرة . ولكن هجرة القبائل العربية الجماعية ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. ومن امتزاج العرب بالحاميين الساكنين فى الأقسام الشمالية والشرقية من السودان ، والبربر الحاميين النازحين من إفريقية الشمالية ، والزنوج الإفريقيين

تولد الشعب العربى المسلم الذى يؤلف أغلبيـة السكان فى الأقسـام الشمالية والوسطى من السودان . وقد كملت عملية تعريب السودانيين ، وإدخالهم فى الإسلام ، حوالى نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، بزوال آخر بقايا دولة النوبة المسيحية .

ثم بدأ طور جديد ، فقد بدأ امتزاج دماء أخرى بالدماء العربية ، فقـد تدفقت على العالم العربى شعوب مختلفة ، منها من أتت مسالمة مثل الفرس والهنود والأتراك والأكراد والأرمن والزنوج ، الذين قدموا عمـالا ، وصناعا ، وجنوداً مرتزقين ، وجوارى ، ورقيقا ، ومنها من أتته فاتحة غازية ، مثـل البويهيين الفرس ، والسلاجقة الأتراك ، والمغول ، وأخيراً الأتراك العثمانيين الذين حكموا العـالم العربى أربعة قرون . خلّفت هـذه الشعوب نسلا يمتوّن بدمائهم إلى سلالات غير سامية ، ولـكن هذا النسل مابرح يمثل أقلية ، ولبث الدم العربى السامى سائدا البلاد العربية ، لفرط حيويته وشدة تأصله ، ولـكونه يدعّم دائما بموجات تأتيه من المنبع أى من جزيرة العرب . ولم يتمكن شعب من الشعوب التى ذكرناها أن يخلّف وراءه طابعه الخاص فى البلاد العربية ، فلم يدم فيها غير الطابع العربى ، لأن كل الثقافات غير العربية كانت تمر فيها مرّ الـكرام ، وسرعان ما كانت تتغلب الثقافة العربية عليها وتطوبها فى طياتها.

وعلى الرغم من أن سيادة الترك العثمانيين فى البلاد العربية كانت طويلة الأمد ، أكثر من كل سيادة أجنبية أخرى ، فإنهم لم يستطيعوا أن ينجحوا

فى عمليّة التتريك . لقد استعمروا البلاد العربية سياسيا ، ولـكن العرب فى أثناء هذا الاستعمار قد استعمروهم أدبيا وثقافيا . وخير دليل على صلابة العرب واعتزازهم الدائم بقوميتهم العربية مانشاهده فى الجزائر فى هذه الأيام، فالجزائر تعانى الاستعمار من قرن وربع قرن ، وأراد الفرنسيون أن يقوموا بعملية (إذابة) أو (إفناء) الشعب الجزائرى ، وبذلوا فى سبيل ذلك كل الوسائل من سياسية إلى عسكرية إلى اقتصادية ، ورغم ذلك فقد قامت حكومة جزائرية مؤقتة، ويناضل الشعب الجزائرى ويبذل دماءه رخيصه فى سبيل المحافظة على عروبته وإنشاء دولة عربية .

وخلاصة هذه الحقائق ، أن معظم سكان البلاد العربية يمتّون إلى أصل واحد هو الأصل العربى (أى السامى) ، وأن اختلاط دمائهم بدماء غير عربية لم يكن له أثر كبير فى نقاء الدم العربى ، بل إن الدماء العربية ظلت الراجحة الراسخة فى جميع الأقطار العربية .

وقبل أن نختم حديثنا عن (العرب) ، نستعرض آراء بعض المستشرقين : قال Gibb [1] فى كتابه (The Arabs) : « مهما قال علماء الأجناس ، فلا يوجد غير جواب واحد مستمد من التاريخ ، للإجابة عن التساؤل (من هم العرب؟) ، أما الإجابة فهى أن العرب هم كل من يعتبرون رسالة محمد وذكرى الامبراطورية العربية ، الحقيقية المركزية فى التاريخ ، بالإضافة إلى اعتزازهم

(١) Gibb : The Arabs, (OXFord, 1944), P. 3.

باللغة العربية وتراثهم الثقافى ، واعتبارها ملكهم المشترك » . ويذكر Bernard Lewis [١] أن جماعة من الزعماء العرب أرادوا منذ عدة سنوات أن يعرّفوا (العرب) فقالوا : « كل من يعيش فى بلادنا ، ويتكلم لغتنا ، وقد نشأ على ثقافتنا ، ويعتز بأمجادنا ، فهو منا » . أما Fisher [٢] فيبحث فى أجناس الشرق الأدنى ، ثم يقول : « والخلاصة أننا نستطيع القول ، من وجهة نظر علماء الأنثروبولوجيا ، أنه من المستحيل أن نتحدث عن (شعب عربى) أو (شعب سامى) ، فالتعبيران يعنيان مزيجا من الناس ، يختلفون اختلافا كبيرا فى الخصائص الجسمانية والأصول الجنسية ، وهما فى أحسن استعمالاتهما لا يعدوان كونهما تعبيراً لغويًا وثقافيا » . ويتحدث George Antonius [٣] عن أن عرب العصر الحاضر هم نتيجة امتزاج العرب الفاتحين بشعوب البلاد الأصلية وتعريبهم هذه الشعوب . ثم يذكر أن العرب هم أغلبية المواطنين فى العالم العربى ، الذين يتحدثون اللغة العربية ، ويتطبعون بالطابع العربى ، بغض النظر عن الدين الذى يدينون به .

تتبع برنارد لويس [٤] تطور مفهوم كلمة (عرب) فى التاريخ ، فذكر أن هذه الكلمة كانت تستعمل قبل ظهور الإسلام وصفاً للبدو ، ثم توسع

---

(١) Bernard Lewis : The Arabs in History, (London, 1951), p. 9.

(٢) W. B. Fisher : The Middle East, (London, 1950) p. 77.

(٣) George Antonius : The Arab Awakening, (London, 1945), p. 13

(٤) Bernard Lewis : The Arabs in History, p. 9-13.

الإغريق والرومان فى استعمال هذا اللفظ فصار يطلق على عرب الجزيرة العربية الرحل والمستقرين حول الواحات . ثم أصبح لفظ (عرب) بعد الفتح العربى يطلق على العرب الفاتحين تمييزا لهم عن سكان البلاد المفتوحة . و بعد أن تحولت الدولة العربية إلى دولة إسلامية عالمية أصبحت الكلمة تعنى ثقافة الإمبراطورية العربية المختلفة الأصول التى اقتبست عن أجناس وثقافات عديدة مختلفة . و بعد أن تم امتزاج العرب بالشعوب المغلوبة ، و بعد خضوع هؤلاء لعناصر حاكمة جديدة ، فقدت الكلمة تدريجيا محتواها القومى وأصبحت عبارة عن اصطلاح اجتماعى فقط يطلق على البدو الذين حافظوا أكثر من سواهم على نقاوة اللغة والتقاليد العربية ، وصار يطلق على الشعوب المستقرة الناطقة باللغة العربية اسم المسلمين أو (أبناء العرب) تمييزا لهم عن باقى المسلمين الذين لا يتكلمون اللغة العربية. ثم أصبح للفظ (عرب) معنى جديد فى عصرنا الحاضر ، وتولد هذا المعنى تحت وطأة الغرب ، فهذا المعنى يعتبر الشعوب المتكلمة باللغة العربية ، شعبا واحدا ، بحسب المفهوم الأوروبى ، أو مجموعة من الشعوب الشقيقة ، يوحدها اشتراكها فى الموطن ، واللغة ، والثقافة ، والطموح إلى الاستقلال السياسى .

و بعد استعراض هذه الآراء نقول إن المقياس الحقيقى فى تحديد من هو (العربى) هو وحدة الموطن، واللغة ، والتاريخ ، والتقاليد والعادات ، والثقافة والنظم الاجتماعية . وأما العامل الدينى الذى أشار إليه (جب) فيعتبره بعض

العرب ، وخاصة فى البلاد التى لا يزال فيها أمر الدين قويا والوعى القومى ضعيفا ، أحد الروابط الأساسية الجامعة بين العرب . على أن تطور الوعى القومى العربى الذى ينمو فى سرعة عظيمة يبعد العامل الدينى ويبرز العوامل الأخرى .

إن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ، ويتكلم اللغة العربية ، هو عربى . مهما كان اسم الدولة التى يتبعها ، ومهما كانت الديانة التى يدين بها والمذهب الذى ينتمى إليه ، ومهما كان أصله ونسبه . والعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية ، ولا مختصة بالمسلمين وحدهم . بل إنها تشمل كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم باللغة العربية . سواء أكان مصريا ، أو لبنانيا ، أو جزائريا . وسواء أكان مسلما ، أو مسيحيا. وسواء أكان سنيا ، أودرزيا ، أو من الشيعة . وسواء أكان أرثوذكسيا ، أو كاثوليكيا ، أو بروتستانتيا . فهو من أبناء العروبة ، مادام ينتسب إلى بلاد عربية ، ويتكلم باللغة العربية .

٣ — أسس القومية العربيـــة

اختلف المفكرون كثيرا فى تحديد أسس القومية العربية ، كما اختلفت النظرة باختلاف العصور والأزمان . اتفقت الآراء على أنه من الضرورى أن يكون بين الأفراد الذين يؤلفون قومية واحـدة شعور عام مشترك يمكنهم من العيش معا. ولـكن ماهو هذا الشعور المشترك؟ ومم يستمدّ وجوده وقوته ؟.

هل يستمدها من (الوحدة الجغرافية) ؟

فقد اعتبرت الوحدة الجغرافية فى وقت ما أحد العوامل التى تكوّن القومية . والمقصود بالوحدة الجغرافية هو أن تكون البلاد التى يسكنها أصحاب القومية الواحدة واضحة الحدود والمعالم ، متحدة متجانسة فى صفاتها الجغرافية من حيث سطحها ومناخها . فتكون هـذه الصفات المشتركة ، بجانب الحب الذى يشعر به سكان البلاد نحوها ، رابطا يربط الأفراد بالبلاد ويربطهم من ثمّ بعضهم ببعض. وغالى البعض فى تأثير البيئة الطبيعية والأحوال الجغرافية فى حياة الأمم وطبائعها حتى أن البعض زعموا أن الأمة وليدة البيئة الجغرافية . وأحسن مثال لهذه الآراء المتطرفة ما ذكره (مونتسكيو) فى كتابه (روح القوانين) ، فقد ادّعى أن البيئة تؤثر فى أخلاق الأمم وسجاياها تأثيرا كبيرا . وحاول أن يعلّل قيام النظم الديموقراطية أو النظم الاستبدادية بالأحوال الطبيعية، وزعم أن انتشار الإسلام فى بعض البلاد وعدم انتشاره فى بلاد أخرى، وانتشار

البروتستانتية فى بعض البلاد و بقاء الكاثوليكية فى بلاد أخرى ، أيضا يعود إلى تأثير البيئة الطبيعية . ولكن فات مونتسكيو أن البيئة الجغرافية تعطى إمكانيات عديدة ، ولكنها لا تحتّم أمرا من الأمور ، وأن مبلغ استفادة الشعوب من هذه الإمكانيات يختلف باختلاف أدوار التاريخ ومستوى الحضارة وخصائصها .

يتحدث بعض أعداء القومية العربية عن اختلاف الأقطار العربية فى المناخ والأحوال الطبيعية والعوامل الجغرافية ، ويزعمون أن هذا الاختلاف يستلزم تعدّد الدول ويحول دون اتحاد البلاد العربية . وفات هؤلاء المغرضين أن اختلاف الأحوال الطبيعية لا يضعف الدولة ، بل بعكس ذلك يكسبها قوة على قوة لأن البيئات الجغرافية المختلفة يتمم بعضها بعضا ، وتجعل الدولة تستطيع أن تستكفى بمواردها ، دون أن تكون مفتقرة إلى مساعدة غيرها ، لضمان حاجاتها المختلفة .

إن فقدان عامل (الوحدة الجغرافية) لا يستطيع أن يفكك أمة فيجعل منها شعوبا ، كما أن وجوده وحده لا يخلق من شعب متفرق أمة . فاليونان فى الوقت الحاضر يسكنون بلادا مختلفة السطح فى أجزائها ، متباينة الملامح الطبيعية ، ومع ذلك فقد احتفظوا بالشعور بوحدتهم القومية . وهذه بولاندة ، وهى فى مقدمة الشعوب العالمية تمسكا بقوميتها ، تسكن بلادا لا حدود واضحة لها ولا يفصلها عن جارتها الشرقية الروسيا ، أو عن جارتها الغربية ألمانيا شىء ،

فالأقطار الثلاثة متصلة بعضها ببعض، لأنها أجزاء من السهل الأوروبى العظيم. ومن الناحية الأخرى فهذا سهل هنغارية الذى يكون وحدة جغرافية ، لم يؤد إلى خلق أمة هنغارية من الشعوب المتباينة الساكنة فيه .

حاول بعض أعداء القومية العربيـة أن يوجدوا روابط سياسية وثقافية مستندة إلى روابط جغرافية ، مثل الرابطة الشرقية ، ورابطة البحر الأبيض المتوسط . إن الجوار وحده لا يكفى لإيجاد رابطة. بل على العكس من ذلك ، قد يؤدّى إلى منافسات ومخاصمات . كثيراً ما نشبت الحروب بين أمم متجاورة ما دام لا يربطها رابطة قوميّة. ولذا فإن الرابطة الشرقية لا تستند إلى أى أساس صحيح . إذا كنا نشاهد فى بعض الظروف، شيئا من التعاطف والتآزر بين الدول والأمم التى تسمى عادة باسم (الشرقية) ، فإن السبب فى ذلك يعود إلى تشابه أحوالها نتيجة لسيطرة الدول المستعمرة عليها ، لا إلى كونها شرقية . ويسجل التاريخ عددا غير قليل من المخاصمات بين الدول الشرقية نفسها ، كما أننا نجد فى كثير من المناسبات مساعدة ومؤازرة من دول غير شرقية ، أكثر من بعض الدول الشرقية .

نادى الفرنسيون بفكرة (رابطـة البحر الأبيض المتوسط) لإيهـام اللبنانيين والسوريين بأنهم أقرب إلى فرنسا من العرب . حقا كانت سواحل البحر الأبيض فى عهد من عهود التاريخ المركز الوحيد للحضارة البشرية ، ولـكن الأمور تغيّرت بعد ذلك . فقد انتشرت الحضارة ، أولا إلى شمال

أوروبا أيضاً ، ثم إلى ماوراء المحيطات . وأصبحت الحضارة غربية ، ثم صارت أوروبية ، ولم يعد للبحر الأبيض ميزة خاصة .

هل نعتبر وحدة الأصل والعنصر أساسا للقومية العربية ؟ .

يظن الناس عادة أن كل أمة من الأمم تنحدر من أصل واحد ، ويزعمون أن جميع أفراد الأمة يكونون بمثابة الأشقاء المنحدرين من صلب أب واحد ، ولذلك نجدهم يكررون فى كل مناسبة كثيرا من التعبيرات الدالة على هـذا الزعم ، كقولهم : أجدادنا ، آباؤنا ، إخواننا . وتطور الأمر ، فقسم بعض العلماء البشر إلى عدة أجناس اعتبروا بعضها أجناسا ممتازة بالفطرة ، وبعضها منحطة بالخلقة ، واتخذ البعض هذه النظرية وسيلة لتبرير النظم الأرستقراطية قائلين : إن الطبقة الأرستقراطية تمتاز عن طبقـة الشعب بدمائها الراقيـة النقية ، فيجب أن تمتاز عنها فى الحقوق أيضـا . واعتبر البعض الآخر هـذه النظرية دليلا على وجوب سيـادة بعض الأمم على غيرها قائلين : إن من حق الأمم الممتـازة بالفطرة — بل من واجبها — أن تسود على الأمم الأخرى لخير الحضارة ، ولمصلحة الإنسانية .

من المعروف لدى علماء الأجناس البشرية أنه لايوجد اليوم دولة من الدول ولا أمة من الأمم ينتمون إلى أصل أو عنصر واحد ، بل نتيجة امتزاج بين العناصر العديدة . فـكل من الأمم الفرنسية والإيطاليـة والألمانيـة والانجليزية تتألف من جماعات تنسب إلى بضع سلالات بشرية . ولا تسود

سلالة من هذه السلالات فى أمة مامن تلك الأمم بمقدار مايسود الأصل العربى السامى فى سكان الأقطار العربية .

إن اختلاف التاريخ العنصرى لشعب مالا يحرمه من كونه أمة ، مادامت هذه العناصر قد اختلطت وامتزجت ببعضها ولم تقف من بعضها البعض موقف عداء ، كما هى الحال فى بعض الدول البلقانية التى لم تتحد شعوبها ، ومن ثم لم تنشأ فيها أمة موحدة ، رغم أنها تعيش فى بلاد واحدة ؛ أى وحدة جغرافية وتحت سلطة حكومة واحدة . كما أن النظرية العنصرية التى تفضل جنسا على آخر والتى ترمى إلى السيطرة على كل من تعتبره تابعا للجنس الأصلى ، هذه النظرية لاتتفق أبدا مع القومية . فالقومية أساسها وحدة الشعور بين أفراد الأمة ، وتلك العنصرية تقوم على سيطرة جماعة واحدة على غيرها من الجماعات التى تعيش معها ، ومن ثم كانت القومية العنصرية خطرا على السلام العالمى ، بينما نجد أن القومية الصحيحة تهيىء أتباعها للقيام بواجبهم كجماعة وكأمة فى سبيل الحضارة العالمية

هل نعتبر وحدة المصالح الاقتصادية أساسا للقومية العربية ؟

لاشك أن المسائل الاقتصادية تلعب دورا كبيرا فى سير التاريخ وتكوين الدول . ولكن البعض يغالى كثيرا فى أهمية العامل الاقتصادى ويرجع كل كل شىء إلى الدوافع الاقتصادية ، وهؤلاء هم أصحاب (مذهب المادية

للتاريخية) الذين ينكرون تأثير العوامل الفكرية ، و يفسرون التاريخ تفسيرا اقتصاديا .

إن ارتباط الأفراد بالجماعات بوجه عام ، و بالقوميات بوجه خاص لايمكن أن يعلل بالمنافع الاقتصادية وحدها . إن حب الوطن ـ وحب الأمة ـ يدفع المرء إلى التضحية بالحياة عند الاقتضاء . ومن الطبيعى أن يدفع إلى تضحية المنافع والمصالح الاقتصادية أيضا .

كثيرا مايتحدث أعداء القومية العربية عن اختلاف المصالح الاقتصادية بين البلاد العربية ، ويزعمون أن هذا الاختلاف يقتضى بقاء تلك البلاد منفصلة ومستقلة ، لان تضارب المصالح يحول دون الاتحاد . ولكن يجب علينا أن نلاحظ أولا أن المصالح الاقتصادية ليست من الأمور الثابتة . لأن هناك مصالح قريبة الأجل ، ومصالح بعيدة الأجل ، مصالح عارضة ، ومصالح مستديمة ، مصالح خاصة ببعض الأفراد ، ومصالح شاملة للجماعات ، مصالح طائفة من الطوائف ، ومصالح الطوائف الأخرى ، مصالح مدينة من المدن ، ومصالح المدن الأخرى ، ومصالح القطر بأكمله . وهذه المصالح كثيرا ماتكون متضاربة ومتباينة بطبيعة الحال .

إنه لاتوجد أمة لاتتضارب فيها مصالح مختلف الجماعات ، ولا توجد دولة لاتكون مسرحاً لتضارب المصالح وتوازنها فى مختلف الميادين . إن اختلاف المصالح الاقتصادية فى فرنسا تدحض نظرية المادية التاريخية . فسكان الجنوب

يغرسون الكرم ، بينما أهل الشمال يعملون فى المناجم والمصانع . وسكان مدينة ليل فى فرنسا أقرب إلى سكان حوض الرور الألمانى فى تفكيرهم الصناعى الاقتصادى . إن وحدة المصالح الاقتصادية لا تؤدى إلى وحدة الأمة ، بل إن وحدة الأمة تؤدى إلى وحدة المصالح الاقتصادية ، فخضوع شعب لدولة واحدة يؤدى إلى توحيد نظمه وقوانينه وادارته ، فيتاح للأمة أن تصهر فى بوتقة الحياة فتزداد ترابطا ومتانة .

هل نعتبر الدين أساسا للقومية العربية ؟

يرى البعض أن الدين من عوامل القومية ومن أسس قيام الأمم . وإننا لانذكر أثر الدين تماما ، فقد شهدت بعض أدوار التاريخ ما يثبت ذلك ، فقد كان الدين أحد العوامل التى أدت إلى انفصال البلجيكيين عن الهولنديين ، كما نعرف أثر الدين فى حياة أسكتلندة وأيرلندة السياسية .

ولكن بجانب هذه الأمثلة القليلة توجد أمثلة أخرى عديدة تبين أن الدين لم يمنع قيام قوميات قوية . فألمانيا تغلب الكاثوليكية على جنوبها وتسود البروتستانتية فى شمالها ، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تكون أمة متحدة لغتها واحدة هى اللغة الألمانية . وهذه انجلترا تتألف من أقلية كاثوليكية وغالبية عظمى بروتستنتية . وهناك كثير جدا من دول أوروبا يستمتع أفرادها بالحرية الدينية دون أن يضعف ذلك الاختلاف الفردى من القومية .

اعتبرت المسيحية أن جميع المسيحيين أبناء إله واحد بصرف النظر

عن القطر الذى يسكنه كل فرد . فكان المسيحيون يعتبرون أنفسهم تابعين لفكرة واحدة عامة وكنيسة جامعة ، لا فرق بين فرنسى أو إيطالى أو ألمانى . وسادت تعاليم أساسها وحدة الشعوب والأفراد وانضواؤهم جميعا تحت قيادة الكنيسة . وهذا الاتجاه فى تفكير أهل العصور الوسطى مثلا يحول دون نشوء روح قومية وطنية . وقد وافق انتشار المسيحية فى أوروبا سيطرة اللغة اللاتينية، فكان للناس جميعهم دين واحد ولغة واحدة ، وهذه اللغة الواحدة زادت فى ارتباطهم بعضهم ببعض .

أما الإسلام ، فقد انتشر له سلطانان فى وقت واحد ، الأول سياسى والآخر دينى . ولما كان الإسلام دين أخوة عالمية ، لافرق بين مؤمن وآخر إلا بالتقوى ، فقد صار المسلمون أخوة تربطهم رابطة واحدة ، على تباعد أوطانهم وتباين طرق معيشتهم واختلاف لغاتهم ، ولكن عندما انحسر السلطان السياسى عن بعض الأقطار ، صار هناك أقطار إسلامية ذات حكومات وطنية ، وأقطار إسلامية أخرى ذات حكومات عربية .

بدأ عصر النهضة الأوروبية ، وبدأ ظهور القوميات ، وعرف الناس معنى القومية والوطنية والدولة والأمة ، وتغلبت اللغة على الدين ، فتحرر المسيحيون من سلطة الكنيسة ، وتخلصوا من اللغة اللاتينية التى تفرضها الكنيسة ، وقامت القوميات على أساس اللغات .

تقسم الأديان إلى نوعين : أديان قومية ، وأديان عالمية . أما الدين القومى

فهو ينحصر فى قوم أو شعب أو مدينة ، فلا يسعى أصحابه إلى نشره بل يسدون أبواب هذا الدين فى وجوه سائر الأقوام ، وهنا ترتبط الحياة الدينية بالحياة السياسية ويكون الدين من عوامل القومية . واليهودية والأديان الوثنية من الأديان القومية .

أما الأديان العالمية ، فلا تختص بشعب أو أمة ، بل تفتح أبوابها للجميع على اختلاف لغاتهم وأجناسهم ، فهى بذلك تعارض القوميات . والمسيحية والإسلام من الأديان العالمية .

هل نجحت المسيحية والإسلام ، وهما من الأديان العالمية ، فى إيجاد رابطة أقوى من الروابط القومية ؟ للأسف الإجابة بالنفى . فإن الأديان العالمية لم تنجح إلا فى نطاق محدود ، ولفترة قصيرة ، فلم تمزج الأقوام ولم تقض على الفوارق .

إن المسيحية حاولت أن تنتشر فى جميع أنحاء الأرض ، وكانت تعتبر جميع المسيحيين أبناء إله واحد ، مهما اختلفت أجناسهم أو أوطانهم ، أو حياتهم الاجتماعية . وكان المسيحيون تابعين لعقيدة واحدة ولكنيسة جامعة وحالت هذا لفكرة دون نشوء روح قومية وطنية طوال العصور الوسطى وساعد على بقاء هذه الفكرة سيطرة اللغة اللاتينية فكان المسيحيون خاضعين لدين واحد ولغة واحدة ، ومالثبت أن انتصرت اللغة على الدين ، وتكونت القوميات على أساس اللغات .

فى الأدوار الأولى من التاريخ كان الانتصار للدين على اللغة، بل إن الدين عمل على انتشار اللغة، فقد انتشرت اللاتينية بواسطة المسيحية أكثر مما انتشرت بواسطة الفتوحات الرومانية ، واللغة العربية نشرها الإسلام أكثر مما نشرتها السياسة والإدارة . ولكن انقسام الأديان إلى مذاهب من جهة وظهور الروح القومية ـ بعد عصر النهضة خاصة ـ من جهة أخرى ، أدى إلى انتصار اللغة على الدين .

إن الإصلاح الدينى الذى نادى به مارتن لوثر لم يكن انقلابا مذهبيا فحسب ، بل أوجد انقلابا سياسيا واجتماعيا خطيرا. فقد حرصت الكاثوليكية على بقاء الإنجيل والصلوات باللغة اللاتينية . لكن لوثر نادى بضرورة ترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية ليتفهمه الناس ، فوضع بذلك حدًّا لسيطرة اللغة اللاتينية ، وأصبحت الكنائس قومية . وحافظت الأمم التى تتكلم باللاتينية على كثلكتها وأعرضت عن المذهب البروتستنتى الجديد ، بينما أقبلت الأمم الجرمانية والانجلوسكسونية على البروتستنتية .

إن الوحدة السياسية التى حاولت الكنيسة المسيحية تكوينها لم تستطع أن تجمع العالم الارثوذكسى مع العالم الكاثوليكى ، كما أن الوحدة السياسية التى سعت لتكوينها البابوية فى العالم الكاثوليكى نفسه لم تعمّر طويلا .

كذلك كان الأمر فى العالم الإسلامى ، فإن الوحدة الإسلامية التى وجدت

فى صدر الإسلام لم تقو على تقلبات الأيام. فالخلافة العباسية لم تستطع أن تجمع كل المسلمين تحت رايتها السياسية وتحولت إلى وحدات سياسية عديدة مستقلة .

إذا أردنا أن نعرف مدى علاقة الإسلام بالقوميات فعلينا أن نتتبع مدى انتشار كل من الإسلام واللغة العربية :

ا — هناك أقطار فتحها العرب المسلمون فتغلبت فيها اللغة العربية على اللغات المحلية وأصبحت اللغة الأولى ، وأصبح الإسلام الدين السائر ، وهى الأقطار التى تكون العالم العربى الحالى .

ب — وفى بعض الأقطار انتشر الإسلام فيها دون اللغة العربية ، مثل ايران وتركيا .

ح — بعض الأقطار انحسر عنها الإسلام واللغة العربية مثل الأندلس وصقلية .

د — أقطار أخرى انتشر بها الاسلام نتيجة فتوح إسلامية غير عربية، مثل فتوح الأتراك السلاجقة فى الأناضول، وفتوح الأتراك العثمانيين فى البلقان، وفتوح المغول فى الهند .

ه — أقطار انتشر بها الإسلام عن طريق غير الفتح العسكرى ، بل نتيجة جهود تجار ووعاظ كما فى أندونسيا وماليزيا .

إن الوحدة السياسية بين المسلمين التى لم تتحقق فى القرون الماضية فى

فى عهود بساطة الحياة الاجتماعية وسذاجة العلاقات السياسية ،وفى أدوار سيطرة التقاليد الدينية على كل ناحية من نواحى الأعمال والأفكار ، ليس من الممكن أن تتحقق فى القرن العشرين الذى تعقدت فيه الحياة الاجتماعية وزادت المشاكل السياسية، وخرجت العلوم والصناعات من سيطرة التقاليد والمعتقدات.

إننا نعيش فى عصر انفصلت فيه العلاقات السياسية عن العلاقات الدينية. فقد شهد القرن العشرون كثيرا من الحروب التى نشبت بين دول تنتسب إلى دين واحد ، وشهد محالفات تضم دولا تختلف فى الأديان إن المسيحية لم تمنع إيطاليا المسيحية من أن تعمل على إفناء شعب الحبشة المسيحى . إن اختلاف الأديان لم يمنع من قيام حلف بغداد الذى يضم دولا إسلامية وأخرى مسيحية، بينما ظل ميثاق سعدأباد الذى عقد بين أربع دول إسلامية حبرا على ورق . ولم يمنع اختلاف الأديان من تكوين كتلة ضخمة تضم الشعوب الآسيوية والإفريقية ، دوّى صوتها فى مؤتمر باندونج وهيئة الأمم المتحدة .

وأخيرا . . أىّ الأسس تصلح لتقوم عليها القومية العربية ؟

إذا أردنا أن نقيم قومية عربية سليمة ، فلنقمها على أساسين قويين ، وهما وحدة اللغة وما يتبعها من وحدة الثقافة والعقلية والنفسية ، ووحدة التاريخ :

ا — وحدة اللغة :

ما هى اللغة ؟ أهى كلمات ينطق الإنسان بها للتعبير عن حاجاته ، أم هى وسيلة لبيان المعانى ، أم هى خزانة لتراث الشعب وثقافته ، أم ديوان لأشعاره

وآدابه ، أم مرآة لأمانيه وآماله ، أم سجل لايمحى لحضارته؟أم مفتاح لأفكاره وأعماله قبل التاريخ ؟ هى هذه كلها أو أكثر . هى جزء من كيان الشعب الروحى ، هى رمز وحدته الروحية وركنها الأعظم .

نعم إن اللغة هى أساس القومية ومحورها ، فاللغة سبيل لنقل آثار التاريخ إلى الأقوام ، فتصبح هذه الآثار جزءا من حياة القوم الفكرية والروحية وعاداتهم الوطنية والخلقية . واللغة ليست ألفاظا فحسب ، بل هى آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ، ولون من ألوان الشعور .

إن القومية فى جوهرها وأصلها شعور ، والأمة هى نتيجة هذا الشعور . هى نتيجة شعور الأفراد واعتقادهم بوجودها . وهذا يتحقق نتيجة الاشتراك فى اللغة ، والتاريخ ، والأفكار . ولا يهمنا أن يشتركوا فى الدين أو العنصر . إن العالمين الكبيرين (منشينى) و (إيوانوف) يشتركان فى اعتبار اللغة عنصرا أساسيا فى تكوين الأمة . ويقول (بلنشلى) : متى استبدل المرء لغته بلغة جديدة خسر قوميته . وفى الحقيقة أن اللغة هى من نتائج الحياة الاجتماعية ومن عواملها فى وقت واحد ، ولو لم تكن اللغة لما تميزت الجماعات البشرية عن قطعان الماشية . كما أن اللغة لم تكن وسيلة التخاطب فحسب ، بل هى وسيلة التفكير أيضا ، ولو لم تكن اللغة لما تقدم العقل البشرى الذى يمتاز به الإنسان عن سائر الحيوانات .

لقد أثبتت الأبحاث العلمية والأحداث السياسية أن أهم عناصر القومية

هى : اللغة والتاريخ . واللغة بمثابة حياة الأمة ، والتاريخ بمثابة شعورها . وهناك أمثلة كثيرة تبرز أهمية اللغة فى نشوء القوميات المعروف أن انجلترا خرجت من القرن الحادى عشر للميلاد وهى وحدة سياسية . وكان فى انجلترا ثلاث لغات : اللاتينية التى كانت قد خسرت المعركة ، والفرنسية التى كانت لغة النورمان الفاتحين ، واللغة الانجليزية التى كانت سبيل الاتصال بالشعب . وقد كانت الفرنسية لغة البلاط والبرلمان فى أول الأمر . لكنه فى سنة ١٣٦٢ استعمل البرلمان اللغة الانجليزية فكان هذا انتصاراً للغة الوطنية . وكان آخر خطوة لانتصار اللغة الانجليزية هو جعل الكنيسة وطنيّة .

لعبت اللغة الألمانية الدور الأول فى ظهور ألمانيا كدولة متحدة مستقلة ، بل إن النزعة القومية الألمانية امتزجت تماما بالحركات الثقافية الألمانية . فقد انصرف الكتّاب إلى دراسة اللغة والعناصر البشرية والتاريخ بقصد الوصول إلى أصل الألمان وتطورهم فى العصور التاريخية حتى ظهور هذه الجماعات التى تعيش فى ألمانيا الكبرى . كما لعبت اللغة الإيطالية دورا رئيسيا فى ظهور الدولة الإيطالية فقد كانت تجمع الإيطاليين لغة واحدة هى لغة لاتينية تطورت مع القرون حتى آلت إلى اللغة الإيطالية التى كان يفهمها جميع سكان البلاد .

إن القومية التركية الحديثة ترتكز على اللغة والأدب والتاريخ . فقد قام ثلاث من الكتّاب الأتراك ، (شناصى أفندى ، نامق كمال ، ضيا باشا) بإحياء اللغة التركية الحديثة ، وحمّلوا بعض الألفاظ معانى جديدة ، فبعد أن

كانت كلمة (وطن) يفهم منهـا البيت أو مكان الميلاد وصارت تدل على (البلاد) ، وبعد أن كانت كلمة (ملت) تعنى جماعة دينية صارت تشير إلى (الشعب) وكلنـا نعرف الدور الذى قام به مصطفى كمال أتاتورك وكيف كان يرى أن الدين الإسلامى لا يصلح لأن يكون أساسا للقومية التركية الحديثة .

يرتبط بوحدة اللغة وحدة العقليـة والنفسيّة . ونعنى بتشابه العرب فى عقليتهم أو مزاجهم أو تـكوينهم النفسى تشابه نظرة العرب إلى شئون الحياة المختلفة ، وكيفية استجابتهم للمؤثرات الخارجية . فالعرب يكادون يتشـابهون فى نظرتهم إلى العمل الإنسانى ، وإلى المرأة ، وإلى الشرف والعرض ، والوفاء والـكرم والضيافة وحماية الجار ، وما إلى ذلك من العادات والقيم الاجتماعية التى هى المظهر الخارجى أو العملى لنفسيتهم .

تشابهت نفسية العرب نتيجة لعوامل عديدة ، معقدة ، تفاعلت دهورا . أهمها تشابه الأسس الاقتصادية ، والاجتماعية ، والروحية التى يقوم عليها المجتمع العربى . فقد كان هذا المجتمع منذ أقدم العصور مجتمعا زراعيا ، إقطاعيا ، قبليا ، دينيا . وسيطرت الروح الدينية على العرب فترة طويلة ، فقد كانت الأراضى التى يعيش فيها العرب الآن مهد الأديان الثلاثة . كما أثرت اللغـة العربيـة ـ بما حوته من شعر وقصص وأساطير وأمثال وحكم وأغان ـ فى تفـكير العرب وأذواقهم ومثلهم العليا .

ب — وحدة التاريخ :

إن أهم عناصر القومية ، بعد اللغة ، هو التاريخ . فالتاريخ بمثابة شعور الأمة وذاكرتها ؟ فإن كل أمة من الأمم إنما تشعر بذاتها ، وتكون شخصيتها بواسطة تاريخها الخاص . إن وحدة التاريخ تولد تقاربا فى العواطف والنزعات ، وتماثلا فى التقاليد والعادات ، وفى ذكريات المفاخر السالفة وفى ذكريات المصائب الماضية ، وإلى تشابه فى أمانى النهوض وآمال المستقبل . إن الذكريات التاريخية تقرب النفوس وتكوّن بينها نوعا من القرابة المعنوية . والامة المحكومة التى تنسى تاريخها الخاص تكون قد فقدت شعورها القومى وهذا الشعور لا يعود إليها إلا عند ما تتذكر ذلك التاريخ وتعود إليه . ولذا فإن الدول المستعمرة تحارب تاريخ الأمة المحكومة ، كما أن اليقظات القومية تبدأ بإحياء التاريخ القومى ، وتذكير الشعب بالسيادة الماضية والمجد السالف ، وبث الإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من معرفة ماضيها الباهر . هذه كلها حقائق ثابتة ، تشهد بها جميع التواريخ من تاريخ استقلال اليونيان إلى تاريخ اتحاد الألمان ، ومن تاريخ ثورة البلغار إلى تاريخ وثبة الأتراك .

إن التاريخ بكل مافيه من حوادث وأبطال وانتصارات وهزائم وذكريات يحيى نفوس أفراد الأمة ويبعث فيهم الروح القوى الوثاب ويدفعهم إلى الأمام . وليس التاريخ عند العرب ماضيا ، بعيدا ، ميتا ، يستعيدونه عند ما

يشاؤون ، وينسونه عندما يريدون ، بل هو حيّ بينهم ، قريب منهم ، بل نقول إن العرب يعيشون فى تاريخهم .

وعلى الرغم من أن العرب فى العصر الحاضر قد تكونوا نتيجة امتزاج أقوام عديدة بالعنصر العربى ؟ فإن الذكريات التاريخية التى تسيطر على عقليتهم هى ذكريات التاريخ العربى الذى يبتدئ عندهم بالرسالة المحمدية ، بينما لا يذكرون شيئا من أمر المدنيّات القديمة التى ازدهرت فى العالم العربى قبل ظهور الإسلام . إن إحساس العرب بتاريخهم على هذا الشكل هو نتيجة لشعورهم بكونهم عربا . وشعور العرب هذا ، على اختلاف الأصول الجنسية التى انحدروا منها ، يعدل شعورهم بأنهم ينحدرون من أصل واحد ، ويجرى فى عروقهم دم واحد ، ويقوم مقامه .

التاريخ العربى حى فى أذهان الجماهير العربية لأنه والإسلام عندها شىء واحد . والإسلام فى العالم العربى حى يطالع المرء أينما ألقى نظره . يطالعه فى هذه المساجد القديمة ، وأصوات المؤذنين ، والآثار العربية الإسلامية ، وسيرة الرسول ، والخلفاء الراشدين ، والأبطال القدماء .

إن وحدة التاريخ بمعناها المطلق التام ، مما لا يتحقق أبدا فى حياة أمة من الأمم ، ولا دولة من الدول ففى كل دولة توجد بعض الأقطار التى لم يتحد تاريخها مع تاريخ بقية أقطارها إلّا منذ مدة قصيرة نسبيا ، وتوجد بعض الأقطار التى يختلف تاريخها عن تاريخ الأقطار الباقية قليلا أو كثيرا . وذلك ليس فى الدول والأمم التى اتحدت حديثا فقط ، بل فى الدول والأمم التى أتمت

وحدتها منذ عدة قرون أيضاً . إذا أنعمنا النظر فى تاريخ فرنسا مثلا ـ وهى التى سبقت سائر البلاد الأوروبية فى تكوين وحدة قومية ـ وجدنا فيها عدة مقاطعات لم تلتحق بها إلّا منذ قرن ونصف قرن ، بل إن مقاطعة حاربت باقى المقاطعات فترة طويلة .

ولذا عند ما نقول (وحدة التاريخ) يجب أن نفهم من ذلك الوحدة النسبيّة والغالبة التى تتجلّى فى أهم صفحات التاريخ التى أوجدت ثقافة الأمة السياسية ، وأعطتها لغتها الحالية وطبعتها بطابعها الأصلى الخاص و إلّا لما استطعنا أن نجد أمة واحدة كانت موحدة على طول تاريخها توحيدا تاما .

و إلى جانب هذا التاريخ العام الموحد يقوم تاريخ إقليمى ، ضيّق الآفاق ، يعمل دعاة الإقليمية على ترويجه وغرسه فى قلوب الناس ، والناشئين منهم ، بواسطة المدارس والمؤلفات والجرائد وغير ذلك من وسائل الدعاية والنشر . وقد أخذت هذه الظاهرة تقوى بعد أن تحقق تقسيم البلاد العربية إلى دول متعددة ، وظهرت فيها أسر حاكمة . وهذا التاريخ الذى يقوم على ذكر حوادث القطر الواحد منفصلة عن حوادث الأقطار العربية الأخرى ، والإشادة بأمجاد الأسر الحاكمة ، وأظهار ما يشجر بين هذه الأسر الحاكمة من خلافات ، كأنها خلافات قائمة بين الشعوب العربية نفسها ، يدعّم الإقليمية ، و يزيد من عوامل التباعد بين البلاد العربية .

وفى ختام هذا الفصل نقول : إن اللغة والتاريخ هما العاملان الأصليان اللذان يؤثران أشدّ التأثير فى تكوين القوميات . فاللغة بمثابة روح الأمة وحياتها ، والتاريخ بمثابة شعور الأمة ووعيها .